

الإسراء

أمضى رسول الله ﷺ ليلة في منزل أم هانئ، بعد أن فرغ من شؤون الناس، وصلى العشاء الآخرة، حتى إذا ما كاد النهار ينسلخ من إهاب الليل، وتفتحت الأعين على تباشير الصباح، أهيّب به أن يستيقظ للصلاة فنهض، ودعا بالوضوء^(١) فتوضأ، وحضرت الصلاة فصلّى، ثم دعا إليه أم هانئ ليحدثها؛ إذ هو ﷺ قد شهد الليلة أمراً عظيماً، ورأى مشهداً عجبياً وقد اختصه الله بفضله، وآثره بشرف، ما يعلم أنه قد حباه أحداً من قبله، أو يتاح لأحد من بعده، ولا مَعْدِل عن الإفضاء به والتحدث عنه.

وجاءت إليه أم هانئ - وهي بنت عمه أبي طالب، ومن شيعته وأنصاره، ومن مؤازريه وأعوانه - فقال لها: «يا أم هانئ، لقد صليت معكم العشاء الآخرة، كما رأيت بهذا الوادي، ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه، ثم قد صليت صلاة الغداة معكم الآن كما تَرَيْنَ».

وأعلنها أنه خارج الآن ليلقى قريشاً ويخبرهم بما رأى، ويقصّ عليهم ما شاهد، تحدثاً بالنعمة، وإعلاناً لقدرة الله.

كانت أم هانئ مؤمنة قوية الإيمان، مسلمة آكد الإسلام، ولهذا لم يُخامرها شك في صدق ما رأى، ولم يداخلها ريب في صحة ما روى، ولكنها عرفت قريشاً: مكرهم وإبذاءهم، وشاهدت قومها: كيدهم وتكذيبهم، فخافت على رسول الله ﷺ من الكيد والتكذيب، وأشفقت عليه من الأذى والاستهزاء، فأخذت بطرف رداءه، وتعلقت به من ثوبه، وقالت: إني أذكرك الله يا بن عمي، أن تأتي قوماً يكذبون رسالتك، وينكرون مقالتك، فأخاف أن يسطوا بك، وتمنت من رواء توصلها، وأملت من وراء تعلقها، أن يكتف حديته، وأن يحفظ ما رأى بين طيات صدره، حذباً وعطفاً، وخوفاً وإشفاقاً.

(١) الوضوء: بفتح الواو: الماء المعد للوضوء.

ولكنه ﷺ يحتملُ رسالةَ البشرية كُلِّها: حاضرها ومستقبلها، فكيف السبيلُ به إلى الخوف؟ ويتنزَّلُ إليه أمرٌ عظيم، فكيف يحوطُه بالكتمان؟ إنه لا يَخَافُ الكَيْدُ والأذى، ولا يخشى الاستهزاء والتكذيب، ولهذا جذب رِداءه، وجمع عَزَمَه وخرج.

* * *

ذهب رسول الله ﷺ غير هيَّاب يحدثُ قريشاً، ولكن أم هانئ تضاَعَفَ همُّها، وزادَ وجَلُّها، فدعت إليها نَبْعَةً - وكانت جاريتها وموضعَ سرِّها وثقتها - وقالت: انطلقني خلفَ رسول الله ﷺ، واسمعي ما يقول، وتعالني بعد ذلك حدِّثيني بما سيكون.

وذهبت نَبْعَةٌ تَقْصُ أثرَ الرسول ﷺ، ثم عادت إلى سيدتها، وقالت: لقد أدركتُ رسول الله ﷺ في الحَظِيمِ، بين الكعبة والحَجَرِ الأسود، وما أن رآه أبو جهل حتى ابتدره قائلاً - مستهزئاً كعادته، متعنّياً كذابه: هل كان من شيء؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم، أُسْرِي بي الليلة». قال: إلى أين؟ قال رسول الله ﷺ: «إلى بيت المقدس». قال له: ثم أصبحت بين ظَهْرَانَيْنَا؟! قال رسول الله ﷺ: «نعم». فعاد أبو جهل وقال: رأيتُ إن دعوتُ قومك أن تحدِّثهم بما حدِّثتني؟ قال رسول الله ﷺ: «نعم». وانطلق أبو جهل يعلِّدو كالثور، وينادي: يا معشر بني كعب بن لؤي!!

قالت أم هانئ: اجلسي يا نَبْعَةٌ، ثم أتمِّي الحديث، فما أَرَى إلا أنه سيطول، وجلست نَبْعَةٌ، واستأنفت الحديث، وقالت: وما راعني إلا القوم يتشألون من كل ناحية، وينسلون^(١) من كل حذب، يقدمهم أبو جهل حتى أحاطوا برسول الله ﷺ من كل جانب، وطلب أبو جهل أن يُخْبِرَهُم الرسولُ بما رأى، وحَسِبَ أنه سيغيّرُ من قَالَتِهِ، أو يبدلَ من خَبَرِهِ، فقال رسول الله ﷺ: «إني أُسْرِي بي إلى بيت المقدس، فنشر لي رَهْطُ^(٢) من الأنبياء، منهم إبراهيم وموسى وعيسى، وصَلَّيْتُ بهم وكلمتهم».

قال أبو جهل - مُمَعِناً في هزئه ومَكْرِهِ -: إن كنتَ قد رأيتهم فصِفْهم، قال رسول الله ﷺ: «أمّا عيسى فوق الرَبْعَةِ ودونَ الطويل، تعلوه حُمْرة كأنما يتحدَّروا عن لحيته

(١) نسل الماشي: أسرع.

(٢) الرهط: الجماعة ما دون العشرة.

الْجُمَانُ^(١). وأما موسى فضَخَّم آدَمَ^(٢) طويل كَأَنَّهُ من رجال شَنْوَةَ، وأما إبراهيم فإنه والله لم أَرِ رجلاً أَشَبَّه بصاحبكم، ولا صاحبكم أَشَبَّه به منه».

ثم عَادُوا فطلبوا منه آيَةً تَدُلُّ على صِدْقِ ذلك، فقال: «آيَةُ ذلك أَنِّي مررت بِعَيْرِ بني فلان بَوَادِي كذا وكذا، فَأَنْفَرَهُمْ حِسَّ الدَّابَّةِ، فَتَدَّ^(٣) لَهُمْ بَعِيرٌ، فَدَلَلْتُهُمْ عَلَيْهِ وَأَنَا مُوجَّهٌ إِلَى الشَّامِ، ثُمَّ أَقْبَلْتُ حَتَّى كُنْتُ بِضَجْنَانَ^(٤) مررت بعير بني فلان، فوجدتُ القومَ نِيَاماً، وَلَهُمْ إِنَاءٌ فِيهِ مَاءٌ، وَقَدْ غَطُّوا عَلَيْهِ بِشَيْءٍ، فَكَشَفْتُ غَطَّاهُ وَشَرِبْتُ مَا فِيهِ، ثُمَّ غَطَّيْتُهُ كَمَا كَانَ، وَآيَةُ ذَلِكَ أَنَّ عِيْرَهُمْ تَصُوبُ الْآنَ مِنْ ثَنِيَّةِ التَّنْعِيمِ الْبَيْضَاءِ^(٥)، يَقْدُمُهَا جَمَلٌ أَوْرَقٌ، عَلَيْهِ غِرَارَتَانِ: إِحْدَاهُمَا سَوْدَاءُ، وَالْأُخْرَى بَرَقَاءُ^(٦)».

وابتَدَرُوا إِلَى الثَّنِيَّةِ، فوجدوا العير كما ذكر الرسول ﷺ، يقدِّمها جَمَلٌ أَوْرَقٌ كما أخبر. قالت أم هانئ: هِيَ يَا نَبْعَةَ، وَمَاذَا كَانَ مِنْ أَمْرِ الْقَوْمِ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ؟ قالت: لَقَدْ رَأَيْتُهُمْ لَوْزًا رُؤُوسَهُمْ، وَغَمَزُوا بَعِيونَهُمْ، ثُمَّ صَاحُوا مِنْكَرِينَ بِمَلَأِ حَنَاجِرِهِمْ.

وقد اجترأ الْمُطْعَمُ بن عَدِيٍّ، فقال: كَانَ أَمْرُكَ قَبْلَ الْيَوْمِ أَمْرًا يَسِيرًا، فَإِذَا بَكَ الْيَوْمَ تُعْجَبُ وَتُغْرِبُ! نَحْنُ نَضْرِبُ أَكْبَادَ الْإِبِلِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدَسِ، نَصْعِدُ شَهْرًا، وَنَنْحَدِرُ شَهْرًا، وَأَنْتَ تَزْعُمُ أَنَّكَ أَتَيْتَهُ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ؟! وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى لَا أَصَدِّقُكَ، وَلَقَدْ أَشْهَدُ أَنَّكَ كَاذِبٌ.

وما وصلت نَبْعَةُ فِي الْحَدِيثِ إِلَى هَذَا الْمَقْدَارِ، حَتَّى عَلَتْ وَجْهَ أُمِّ هَانِيءَ سَحَابَةً مِنَ الْهَمِّ، وَتَحِيرَتْ فِي عَيْنِهَا دَمْعَةٌ مِنَ الْإِسْفَاقِ.

وَلَكِنْ نَبْعَةُ اسْتَأْنَفَتْ حَدِيثَهَا وَقَالَتْ: أَمَّا أَبُو بَكْرٍ فَإِنَّهُ نَطَقَ مِنْ فَوْرِهِ، وَقَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَشْهَدُ أَنَّكَ صَادِقٌ. فَقَالَ لَهُ الْمُطْعَمُ بن عَدِيٍّ: أَتُصَدِّقُ أَنَّهُ ذَهَبَ إِلَى بَيْتِ الْمُنَدَسِ، وَعَادَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ؟! قَالَ أَبُو بَكْرٍ: نَعَمْ، إِنِّي لَأُصَدِّقُهُ فِيمَا هُوَ أَبْعَدُ مِنْ ذَلِكَ،

(١) الْجُمَانُ: حب يصاغ من الفضة على شكل لؤلؤ، أو هو اللؤلؤ.

(٢) أَدَمَ: اشتدت سمرته، فهو آدَمَ.

(٣) تَدَّ البعير: نفر وشرد.

(٤) ضجنان: جبل بناحية تهامة. وقيل: هو جليل على بريد من مكة.

(٥) الثنية البيضاء: عقبة قرب مكة، أسفل مكة من قبل ذي طوى.

(٦) بَرَقَ الشَّيْءُ: اجتمع فيه لوانان من سواد وبياض، فهي برقاء.

أنا أَصَدِّقُهُ فِي خَبَرِ السَّمَاءِ فِي غَدُوِّهِ وَرَوَّاحِهِ، أَفَأَكْذِبُهُ فِي إِكْرَامِ اللَّهِ لَهُ بِأَنْ يَنْقُلَهُ مَسِيرَةَ شَهْرٍ؟
وَتَبَعَ الْمُسْلِمُونَ أَبَا بَكْرٍ، وَلَكِنْ وَأَسْفَاهُ! لَقَدْ ارْتَدَّ نَفَرٌ قَلِيلٌ مِنْهُمْ، لَمْ تَتَّسِعْ عَقُولُهُمْ
لَأَنْ تَدْرِكَ قُدْرَةَ اللَّهِ، وَلَمْ تَسْتَرْوِخْ قُلُوبُهُمْ لَمَا اخْتَصَّ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

قَالَتْ أُمُّ هَانِيءٍ: لَا بَأْسَ عَلَى دِينِ رَسُولِ اللَّهِ مِنْ هَؤُلَاءِ النَّفَرِ الَّذِينَ ارْتَدُّوا، فَلَعَلَّ مِنَ
الْخَيْرِ أَنْ يَبْتَعَدُوا عَنْ صُفُوفِ الْمُسْلِمِينَ، وَيَمَّحُوا مِنْ صَحِيفَةِ الْمُسْلِمِينَ؛ إِذْ لَا خَيْرَ
لِلْمُسْلِمِينَ فِي ضَعِيفٍ مُتَرَدِّدٍ، وَلَا نَفْعَ لَهُمْ فِي مُذْبَذَبٍ مُضْطَرِبٍ.